

## حسام خوش نوييس سلاماً

الشيخ مهدي مصطفى\*

عند الصباح تحتيك شمس بلادي، حيث تراك على ثراها تجول. نغازلها بترانيم الفجر، مع زقزقة طيور العشق في بقاع ضمّ بين حناياه صور الرسل، تمتامت سرها للراجلين في هودج الشهادة، وتلوح لها عند المغيب مع يدي تلال عاملة السمر، لتبتسم دون كشف لغزها، ليبقى في قلبها لقاء الحنين. تطوي الأيام على منوال العطاء، تزهر في كل بقعة صرحاً، تلمس الأحجار لتسكن ألمها الدفين، عمرها عمر السنين، إلى حيث لم تصل الأم في رعاية أبنائها، كانت أنامل حسام تزرع شتول البقاء في عبوك بعد المشرقين. تغزل من خيوط العزم حباثل الإصرار، لتلتئم بين يديك زهرات الياسمين. من هلال المسجد إلى صليب الكنيسة، من حروف العلم إلى أعشاش الحنين، من دروب القهر إلى سبل الوصل، تنطق الأرض باسمك يا حسام. هبة الله، في أرقى العطاء، من تخوم الوطن إلى قلبه المعذب، ترتسم صورتك بيد تبلسم جراح الزمان، وتكفك دموع الأيام بمناديل الطهر، رمقتك عيون الوفاء في وهاد وطني. ورفعت رايتك مضاب تعتر بها البلدان، الجموع تعرفك، وهل من أحد لا يعرف حسام الوطن ورشة سقيتها ببديك، كما ارتشفت مياه العاصي بهما، نما فيك الجهاد لتغدو من القلائل، مع الأوائل امتشقت سيف البناء، من خلق إلى خلق، من ربح العازف على أوتار الشهادة اقتبست الحروف، من مدرسة العارف بعمق الحياة تعلمت الوفاء. ومع رحيل الثائر في نهاية الثمانينيات، طاف وجدك محلقاً بين فضاءات الأيام ليرتوي من معين الحقيقة الأبدية. علمك الإمام الخميني (قده) أن الهدوء في العطاء فناء قبل الممات، فكنت دائم الترحال حتى قدمت الحياة. هي بيروت موطن عشقك، فيها تنشقت عبر الأحرار، هو الجنوب قبلة وجهك، فغدوت جنوبي الهوى، وفي البقاع سهل عليك أن تتلمس موطن الأبرار. حشرجات الروح قادتك إلينا حاملاً نموذجاً للحياة، بين يديك وضعت خريطة لبنان وبخبرة الجاد رسمت أناملك خطوطاً واتجاهات. هنا نشأ صرح وهناك دور العبادة، وعلى مساحة أخرى دروب الوصل في

الوطن، فعدا لبنان متشابك الأوصال بمسحكتك الإيمانية الطاهرة، بعدما قطعها حقد صهيوني قديم لينال من عزمها وعنفوانها، فابت إلا أن تكون في الوجود بسحرك الميمون، فأكثر من سبعة عشر ألفاً وثلاثمئة وتسعة وعشرين مشروعاً تنموياً وإعمارياً تشهد لعينيك الناظرين في البعيد، هاجراً صنوف التطييف والتصنيف، عابراً للهئات في بلد تقاس فيه الرجال بالهويات، هل مَرَّ في تاريخ هذا الوطن الجريح ملبساً يشابهك، هل شهد زمن العطاء لحسام في هامتك. أجول في شوارع البلد وأقرأ أسماءها، اللبني، وديغول، وكليمصو، ومدام كوري، وباريس، أسماء أعرف أن لها في صفحات التاريخ ما لها، أخذت من حيز الجغرافيا مكاناً لتبقى في ذاكرة الأجيال، هل بنت لوطني ما بنيت، وهل سقت لأرضي ما سقيت، وهل بلسمت جراحت ما بلسمت، وهل وصلت فيه ما وصلت، لكن لا تثريب عليهم. إن الأيام لا تغفر لجاحد جحد حقاً، ولا تمحو الليالي منارات التضحية والعطاء، ولن تختفي بين غباب الظلم والإجحاف كلمات نطقت بها شفقتك «أننا قد عملنا لكل الناس في لبنان من دون النظر إلى الهوية والطائفة والمذهب». سواء قدروا لك هذا الفداء أو لم يقدروا، وسواء شهدوا لك أو لم يشهدوا، سواء خلدوا اسمك في هذا الوطن أو لم يخلدوا، وسواء شعروا أو لم يشعروا، وسواء أبخوك أو لم يؤبوك، وسواء اعترفوا أو لم يعترفوا. فانت حسام البناء والإعمار، وأنت حروف أضاعت سماء الوطن المقام، وأنت حروف أضاعت سماء طالما أسهمت ظلمات الجهل في الإطباق عليه. لذا، سيبقى وهج عطائك صادحاً في فضاء السماء وفي تخوم الأرض وعلى شرفات المنازل وفي دروب الحب والتضحية والفداء. سيظل اسمك خالداً في قلوب وعقول الأوفياء الذين عرفتهم والذين سيرعف الزمان بهم، سيظل اسمك مشهوراً حساماً صارخاً في وجه الظلم والطغيان والعدوان والحرمان. سيظل اسمك تتناقله الأجيال أنك رجل الإعمار في وطن المقاومة والعنفوان والكرامة، وسنظل نقول حسام خوش نوييس سلاماً.

\* كاتب وباحث لبناني



كان عابراً للهئات في بلد تقاس فيه الرجال بالهويات (أرشيف)

■ نائب رئيس التحرير: بيار ابي صعب ■ مدير التحرير: إيلي شلموب، وديف قانصوه ■ اقتصاد: محمد زبيب ■ محليات: حسن عليف ■ مجتمعي: هدى زراقت ■ عالم: حسام كفتاني ■ ثقافة وتراث: امه الاندرج

■ المدير الفني: اميل منعم

■ رئيس مجلس الإدارة: ابراهيم الامين ■ الإدارة المالية: فادي خليك ■ الموارد البشرية: ريم اسماعيل

■ المكاتب: بيروت - فسادات - شارع جونت - سنتر كوندورد - الطابق السادس ■ تليفون: 01759500 01759597 ■ ص.ب 113/5963 ■ www.al-akhbar.com

■ الاعلانات: Tree Ad 03 / 252224 - 01 / 611115 ■ التوزيع: شركة اللوانك 03 / 828381 - 01 / 666314 - 15

الزخار

تأسست عام 1953  
تصدرت شركة «الخبر بيروت»

رئيس التحرير: الموسس جوزف سماحة (2006-2007)

مستشار مجلس التحرير: انسوي الحاج

رئيس التحرير: المدير المسؤول: ابراهيم الامين

اسعد ابو خليك\*

إني أتهم. بتعرض العلويون في لبنان لحملة اضطهاد فظيعة لم تصل إلى مرحلة الإبادة - ليس بعد. لكن أصوات المطالبة بتكفير العلويين وإبادتهم باتت ترتفع من عناصر ليبرالية وسلفية في لبنان وسوريا على حد سواء. والذي هدد العلويين في سوريا بالفرم يُحسب على الجناح الليبرالي في فريق 14 آذار السوري. لكن لو تركنا الشأن السوري جانبا، فيمكن الحديث عن وضع العلويين في لبنان بصرف النظر عن تطورات الأوضاع في سوريا وبصرف النظر عن ضخ الكراهية من مصانع الوهابية.

لبنان أصر منذ إنشائه ككيان يخدم المستعمر على تشكيل تراتبية عنصرية من هرمية الكراهية التي تنبع من عقيدة التسلط الطائفي الذي أرادته البطريركية المارونية (المتحالفة فعلاً مع الصهيونية والتي وقعت معها اتفاقية سرية عام 1946، والتي لم نعلم بها إلا بعد كشف الوثائق في الأرشيف الصهيوني في الثمانينيات من القرن الماضي). وعليه، فإن الموارنة هم الأرفع مرتبة وذلك نتيجة (وسبب) بنين الطائفية الذي فرضه المستعمر مع حلفائه على الشعب اللبناني منذ بدء الجمهورية. لكن فرض (لا) ديمقراطية قائمة - مثلها مثل الصهيونية - على تفوق عنصر على عنصر آخر (أو على عناصر أخرى) يؤدي حتماً إلى تأسيس التمييز والاضطهاد والقمع الطائفي والطبقي. وضخ النظام الطائفي هذا التراتبية الطائفية (النوعية)، كما وصفها بصراحة بيار الجميل الحفيد وكما عبّر عنها جبران تويني الحفيد) في جسم المجتمع والثقافة في لبنان. وعليه، كان العجز والسود والأكراد والعلويون في أسفل السلم التراتبي (وكان الشيعة حتى اندلاع الحرب الأهلية في أسفل السلم أيضاً). وكلما تدنت مرتبة الطائفة أو الفئة في هذه الهرمية اللبنانية، زاد إسهامها في تقديم الخدمات للمنازل. والشيعة والعلويون والأكراد والفلسطينيون شكلوا معظم عائلات خادمت المنازل في سنوات ما قبل الحرب الأهلية. لا يذكر أحد مثلاً أنه وقع على خادمة مارونية يوماً ما (أذكر في مؤتمر في أوتاوا، كندا، في التسعينيات من القرن الماضي، أن سمير خلف، بعدما عبّر عن موقف اعتبره الحضور طائفاً بحق الشيعة في لبنان، دافع عن نفسه بالقول: إنه لا يمكن إلا كل المودة للشيعة لأن خادمة منزل عائلته كانت شيعية. أذكر أن زميلي - وأستاذي في جامعة جورجيتاون، مايكل هيدسون - قال لي بعدها: لو أنه تكلم عن السود في أميركا كما تكلم هنا عن الشيعة لقام أحدهم برمييه من النافذة).

العلويون مهانون ثلاث مرّات في لبنان: اجتماعياً وسياسياً ودينيّاً. العلويون يحتلون مرتبة دنيا في السلم الاجتماعي بسبب التراتبية الذي فرضها نظام التسلط الطائفي في لبنان. وعليه، فإن العلويين كانوا أدنى مرتبة من الشيعة في عصر كان الشيعة فيه في لبنان مهمّشين، وكان فيه زعماءهم مجرد أدوات بيد قيادة (طائفية ل) طوائف أخرى. وتدني المرتبة الاجتماعية يعني أن العلويين مهمّشون اجتماعياً ويعني أيضاً أنهم مرفوضون في الزواج المختلط (على ندرته في سنوات ما قبل الحرب) وحتى في الزواج بين المسلمين (ليس هناك إحصاءات دقيقة عن الزواج بين السنة والشيعة في سنوات ما قبل الحرب، لكن هذا النوع من الزواج كان نادراً خصوصاً قبل نزوح شيعة من البقاع والجنوب إلى العاصمة. والنفور الاجتماعي من العلويين يفسر ارتفاع نسبة الزواج داخل الطائفة، وإن كان السبب يختلف عن الدروز لأن تلك الطائفة أغلقت باب التحول إليها في القرن الحادي عشر). لكن فورة الطائفية المذهبية التي صرّها آل سعود إلى لبنان في العقد الماضي، والتي تلقفها آل الحريري بانصياح، أثبتت أن نعمة احتقار الشيعة (اجتماعياً ودينيّاً) لا تزال حية داخل الوسط السنّي في لبنان. ولا يحتاج التوتّر المذهبي إلا إلى عود الكبريت فقط، على قول يوسف وهبي الشنيع عن «الشرف». (على الأقل، كان هيغل صريحاً في «فلسفة الحق» عندما ربط بين مفهوم «الشرف» والموقع الدوني للمرأة، إذ إنه رأى أن الرجل يمكنه أن يتجلى أخلاقياً خارج العائلة بينما ترتبط «خسارة» الشرف ب«تسليم» الجسد - راجع الإضافة في القسم الثالث من الكتاب المتعلق بالعائلة). وكيف يمكن الزواج من العلويين والعلويات وقد اتفق علماء المسلمين على أنه لا

## إني أتهم: السكوت عن ااض



تجوز مناكتهم؟

وعلى عكس المسلم (وكان على الشيعة أن ينضوا بخجل قيل سنوات الحرب في بوتقة «الإسلام» بصورة عامة خشية الإحراج أو حتى الاضطهاد، ولهذا كان التعبير السياسي للإسلام ينعكس في قيادة سنّية لشئ الطوائف الإسلامية، المذكورة منها والمضمرة)، فإن العلوي كان في منزلة بين المنزلتين: لا هو (أو هي) من فئة الأقليات المسيحية على أنواعها والتي لحظها القانون العام والانتخابي، ولا هو (أو هي) في منزلة المسلمين الممثلين في المجلس النيابي. ببساطة، كان العلويون في لبنان طائفة مُغَيبة وممنوعة من تبوء مناصب في الدولة اللبنانية، وكان محرماً عليهم حتى التقدم للدخول إلى الكلية الحربية (كان العلويون أو بعضهم يقومون بتغيير دينهم للتقدم إلى بعض وظائف الدولة). وفي حسابات الطوائف المحسوبة ب«بيض النمل» على ما كان لبني يقول، لم يكن لا السنة ولا الشيعة مستعدين للتضحية بما كانت تجود به عليهم قيادة الطائفة المتنفذة.

لكن الحظر الديني كان ولا يزال قاسياً. فإن تكفير العلويين وأقع تاريخي، ولا ينحصر بتكفير السنة لهم. فمن منظر الشيعة الإثني عشرية، فإن العلويين ينتمون إلى فرق غلاة الشيعة الذين وقعوا في الضلال وبلغوا في شططهم الكفر. والعلويون أقاموا في لبنان قروناً طويلة، وهم ليسوا من الطائرين عليه كما حاولت محطة «الجزيرة» (الوقحة في تقوُّ الكراهية الطائفية - المذهبية هذه الأيام) في تقرير عنهم في شهور الأزمة السورية. هاكم (وهاكن) الرحالة ابن جبير يتحدث عن العلويين عند مروره في بلادنا أواخر القرن الثاني عشر (ميلادي): «وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة، وهم أكثر من السنّين بها. وقد عَمَرُوا البلاد بمذاهبهم، وهم فرق سنّي: منهم الراضية، وهم السبابون، ومنهم الإمامية والزيدية، وهم يقولون بالتفضيل خاصة، ومنهم الإسماعيلية والنصيرية وهم كفره فإنهم يزعمون الإلهية علي، رضي الله عنه، ومنهم الغرابية، وهم يقولون: إن علياً، رضي الله عنه، كان أشبه بالنبي، صلى الله عليه وسلم، من الغراب بالغراب». (ص. 252 من طبعة دار صادر).

ومن دون الخلط بين الموضوع بين أدينا وبين الصراع في سوريا، فإن الصراع هذا قد أجح الحقد المذهبي (في سوريا وفي لبنان وفي كل